الطائفة المارونيّة والرهبانيّة اليسوعيّة

في القرنين السادس عشر والسابع عشر

للاب لويس شيخو اليسوعي

سفارة الاب يوحنا ايانو الى الموارنة ١٥٨٠ــ١٥٨٢ (تابع)

الاب اليانو والبطريرك سركيس الرزي

كان انتخاب البطريرك سركيس كنهنة جديدة للطائفة المارونيّة في لبنان فباشر بتدبيرها بكل نشاط وغيرة فوافقت اعمالهُ ما كان مأمولاً منهُ ومضاهياً للثقة بهِ . واوّل ما قصد القيام بهِ زيارة ابنائهِ المتفرّقين في انحاء الجبل برفقة القاصد الرسولي الذي اثنى على اعمالهِ وهمّتهِ في رسالتهِ وتوجّها الى الكردينال كرافا ومما قالهُ هناك انّ السيد البطريرك منح سرّ التثبيت الاحداث واوجب عمادهم بعد ميلادهم بايّام قليلة خلافاً للعادة الجارية بتأخير المعموديّة زمناً طويلاً وحظر على الكهنة ان يُعطوا القربان الاطفال قبل سنّ الرشاد لسوء عقبى ذلك الامر وكرّر على مسامع الجميع عقيدة المشيئتين والفعلين في اقنوم السيد المسيح .

ولدينا رسالة اخرى كتبها الاب اليانو الكردينال كرافا ذكر فيها مفصلاً ما صنعهُ مدّة السنة التي قضاها مع الاب برونو في لبنان ليطّلع عليها الحبر الاعظم غريغوريوس الثالث عشر فيعلمها أيريد منهما غير ذلك ام يأمرهما بالرجوع الى رومية فقال : هذه خلاصة الامور التي انجزناها في مدّة سفارتنا الى الموارنة :

١ً قد عُقد المجمع الملّي

٢ً انتشر بين العموم كتاب التعليم وغيرهُ من الكتب الكاثوليكيّة

٣ً درجت بين الاكليروس رتبة تكريس الميرون ومنح المشحة الاخيرة

٤ً قد تمّت زيارة الطائفة الّا بعض الامكنة البعيدة كدمشق وحلب فوجّهنا الى اهلها الرسائل المطوّلة ريثما نتمكّن من زيارتهما بعد عودتنا من زيارة القدس

الشريف وكذلك جزيرة قبرس تزورها في عودتنا الى ايطالية حيث ترسو السفينة في مرفأها من ١٥ الى عشرين يوماً

٥ قد اطّلعنا على كثير من مخطوطات الموارنة الطقسيّة والدينيّة

٦ وانتزعنا منها جدولاً نصعنا فيه على الاضاليل التي وجدناها في تلك الكتب وقد ارسلنا لنيافتكم نسخة من هذا الجدول

٧ ثمّ راجعنا مع ارباب الطائفة تلك النصوص الفاسدة فوافقونا على بطلانها

٨ اهتممنا بالغاء عادات سيئة مخالفة للآداب الدينيّة

٩ قد أرسلت الى جميع الكنائس تنبيهات ومعلومات رومية مع امر السيّد البطريرك بالسير على موجبها

١٠ واخصّ ما ألفتنا اليه نظر الكهنة معرفة مادّة الاسرار السبعة وصورتها

١١ اهتممنا خصوصاً بفتح مدارس للاحداث في عدّة امكنة

١٢ قد ارسلنا اخيراً الى رومية بعض اولاد الطائفة ليتخرّجوا هناك في الآداب الكهنوتيّة

« وان بقي شيء بعد ذلك سنتحرف جهدنا باتمامه بعد زيارتنا للاراضي المقدّسة ان شاء الله ثمّ نكرّ راجعين الى ايطالية في ربيع السنة القادمة (١٥٨٢) ان حسُن الامر في اعين قداسة الحبر الاعظم . ولا نرى في تأجيل رجوعنا خيراً لما يُحدق بنا من الاخطار . فانّ الغرباء قد بلغهم وجودنا في الجبل ووقفوا على سبب مجيئنا وعرفوا من هو الذي ارسلنا الى هذه الاطراف . ولا شكّ بان سعينا من قبل امراء البلاد من جرّاء ذلك عدّة مساءات وامل السيّد البطريرك تصفيته لاجلنا مشاكل مؤلمة . فالاولى ان نبرح الشرق عاجلاً »

زيارة الاب اليانو الى القدس ثمّ الى دمشق

كانت غاية الاب اليانو من سفره الى القدس الشريف مع الاب يوحنّا بروفو اولاً التبرّك بمشاهدة قبر السيّد المسيح . وثانياً زيارة من هناك من الموارنة . وثالثاً التباعد مدّة عن لبنان من وجه المترصّدين لسفير الكرسيّ الرسولي والمضمرين له الشرّ الى حين ورود جواب الحبر الاعظم على رسائله

ابحر المرسلان من طرابلس الى يافا في العشر الاخير من شهر تشرين الثاني كما يُستفاد من رسالة للاب اليانو مؤرخة في ٢٣ منهُ سنة ١٥٨٠ كتبها لرئيسه العام وهو الاب كلوديوس اكواڤيڤا الذي كان أُقيم خلفاً للاب مركوريان المتوفى في غرة آب ١٥٨٠ فعُهدت اليه رئاسة الرهبنة في ١٩ شباط ١٥٨١ . وكان دخولهما المدينة المقدسة في سلخ الشهر ونزلا ضيفين كريمين على رهبان القديس فرنسيس ووجدا لدى رئيسهم حضرة الاب انجلو ستلا البندقي كل كرامة ووداد وشفيا غليلهما من معاينة كل الامكنة المقدَّسة واكرام أسرار حياة وآلام وقيامة السيد المسيح

ثم زارا الموارنة المستوطنين القدس وكان عددهم قليلاً لهم دار ابتاعها البطريرك موسى الكفاري نحو السنة ١٥٦٥ بعد أن وضع القبط ظلماً يدهم على كنيستهم المبنية على اسم مار جرجس الشهيد

ومما روى الاب اليانو ان رئيس الاراضي المقدَّسة وكلَ اليهِ فحص كاهنَين قدما من جهات الموصل وطلبا ان يقدّما الذبيحة على القبر المقدس . فوجدهما المرسلان من تبعة النساطرة واخذا يرشدانهما في حقيقة الايمان الكاثوليكي الى أن اقتنعا هما برحدة الاقنوم في السيد المسيح وبعقيدة امومة البتول والدة الله فجددا بدعة نسطور بتلاوة دستور الايمان الذي عرَّبهُ لهما الاب اليانو وطلب صورتهُ منهُ رئيس الآباء الفرنسيسيين ليفرضهُ عند الحاجة على زوَّار النساطرة

*

كان رجوع الاب اليانو ورفيقهِ من القدس الشريف الى لبنان في اواسط كانون الاوَّل ١٥٨١ على طريق البرّ ليزورا الموارنة في دمشق الشام ويسعيا بردّ بطريرك الروم الى الوحدة الكاثوليكيَّة كما اوصاهما الكردينال سان سڤرينو

كانت دمشق في ذلك العهد تحت حكم الدولة العثمانية منذ ٦٦ سنة يتولَّى تدبيرها ولاةٌ يرسلهم السلطان ثمَّ يعزلهم في السنة مرَّتين او ثلاث مرار فيبيعون منهُ منصبهم ثمَّ يتقاضَون بالربا مالهم بظلم الرعيَّة وتعميم الوشوة . والنصارى كما لا يخفى في مقدَّمة المظلومين

سُرَّ الاب اليانو بنظر تلك المدينة الشهيرة عاصمة برّ الشام وجنَّة الشرق الفيحاء

لكنَّهُ اسف لما رآهُ من سوء حالة الموارنة فيها ولما يلحقهم من المظالم فبذل السعي في نهض همهم وتجديد نشاطهم ولا سيَّما في إحياء عواطف الدين في قلوبهم فعرض عليهم ما اتَّفق عليه آباء مجمع قنُّوبين سواء كان من جهة المعتقدات ام من طرف الآداب والتهذيب فوجدهم جميعاً طوع بنانهِ خاضعين طائعين لامر رؤسائهم وتعاليم الكرسي الرسوليّ فشكر الله على حسن انقيادهم وطيب عنصرهم . ولم يجد في دمشق اسقفاً للموارنة لأن المطران جرجس البلوقيتي الذي كان سامهُ البطريرك ميخائيل الرزي على الشام سنة ١٥٧٧ كان يقيم في قنُّوبين

ثم اخذ الابوان يبحثان عن اقرب واسطة للتقرُّب من الروم وكانت اذ ذاك احوالهم الدينيَّة في اضطراب عظيم لانقسام الطائفة بين بطريركين ميخائيل السابع ويواكيم الخامس فانَّ الدمشقيين لعداوة وقعت بينهم وبين بطريركهم ميخائيل لُتهَم اتَّهموه بها سعوا بنفيهِ واختاروا بدلاً منهُ يواكيم ضو مطران طرابلس فجلس هذا على سدَّة بطريركيَّة انطاكية وحصل بذلك مشاحنات وشرور عظيمة وغرامات اموال لم تنتهِ الى سنة وفاة ميخائيل نحو السنة ١٥٨٣

فالى يواكيم المذكور كتب الاب اليانو طالباً منهُ ان يسمح لهُ بزيارتهِ مع الاب برونو باسم الحبر الاعظم واسم الكردينال سان سفرينو محامي الطائفة اليونانيَّة . فاجاب البطريرك انَّهُ يُسَرّ بمشاهدتهما ثمَّ عيَّن لهما يوماً استقبلهما فيهِ مع اعيان طائفتهِ ورحَّب بهما . فداز الحديث عن الحبر الاعظم غريغوريوس الثالث عشر ومحبَّتهِ نحو طوائف الروم واليونان الذين انشأ لاجلهم في رومية العظمى مدرسةً كبيرة لتخريج الشبَّان وقصدهُ ان يرسلهم لمساعدة بني ملَّتهم . ثمَّ اتَّسعا ببيان رغبة الحبر الاعظم في اتحاد الكنائس الشرقيَّة بالكنيسة الغربيَّة وما ينتج عن ذلك من الفوائد الجمَّة للروم . ولمَّا اعترض احد الحضور على الكنيسة الرومانيَّة باعتقادها انبثاق الروح القدس من الآب والابن اسرع الاب اليانو واثبت معتقد اللاتين بهذا البرهان البسيط ذي الحدين : اما انَّكم تقولون انَّ الابن هو مساوٍ للآب واما انهُ اصغر منهُ . قالوا : انَّ الابن هو مساوٍ للاب . فاردف الاب اليانو قائلاً :

«فان اكَّدتم انهُ مساوٍ للاب لا بدَّ ان تقولوا انَّ الروح القدس منبثق من الاب والابن لأنَّ الانجيل يصرّح بانَّ كلّ ما هو للآب هو ايضاً للابن فانبثاق الروح

القدس هو اذن من كليهما كن مبدإ واحد» . فاشار البطريرك الى احد علمائهم كي يعلن رأيهُ في هذه القضيَّة فـانتصب قائلًا : « انا أرى انَّ الابن اصغر من الآب » فتعجَّب المرسلان من قولهِ فقالا : «أفَلَا تعلم انَّ هذه بدعة آريوس التي حرمها المجمع النيقاوي والتي يضادُّها قانون الايمان الذي تتلونهُ في كنيستكم» . فانقطع عن الكلام وبقي الحضور في الحيرة صامتين . وكان حضر مع المرسلين بعض الموارنة فسُرُّوا لانتصار الحقيقة وخرج الاب اليانو دون ان ينال وعدًا صريحـاً من البطريرك بامر الاتحاد . ولمَّا عاد اليهِ بعد ذلك وحرَّضهُ على تلبيـة دعوة الحبر الاعظم كان جوابهُ انهُ لا يستطيع ان يصنع شيئاً دون الاتفاق مع بطريرك القسطنطينيَّة وانَّما رضي بكتابة رسالة الى الحبر الاعظم يشكرهُ فيها على لطفهِ وسرورهِ بمشاهدة قـاصدهِ وشفعها برسالة ثانية للكردينال سان سفرينو . فارسل الاب اليانو المكتوبين الى رومية مع ترجمتهما عن اصلهما العربيّ

رجوع الاب اليانو الى لبنان

رجع الاب اليانو والاب برونو الى لبنان قبل عيد الميلاد من السنة ١٥٨١ وقضيا فصل الشتاء والربيع من السنة المقبلة في طرابلس حيناً وفي قنُّوبين حيناً آخر ينتظران موعد سفر المراكب الى ايطالية في نيسان

ولكنَّهُ وردت اليهما رسائل من الاب اكواڤيڤا رئيسهما العام ومن الكردينال سان سفرينو يوعزان اليهما بان يعود الى ايطـالية الاب برونو مع الاخ ماريو (وكان هذا قد أُوفد حديثاً اليهما) ليطلعا الحبر الاعظم على نتيجة السفارة الى لبنان . واما الاب اليانو والاخ برنردينو فقد تقدَّمـا اليهما بان يُبحرا الى مصر لخدمة الكنيسة . لانَّ بطريرك الاقباط كان قرَّر بان يتَّحد هو وشعبهُ مع رومية بالايمان المستقيم

رأى الاب اليانو في هذا الامر بالسفر الى مصر مشاكل ارادان يعرضها على رئيسهِ العامّ وعلى نيافة الكردينال سان سفرينو ليكونا على بيِّنة من احوال الاقباط لأنهُ كان قبل سفارتهِ الى لبنان سنة ١٥٦١ أُرسل مع الاب كرستـوف رودريكس الى القطر المصري فقاسيا المشقَّات العظيمة ليردَّا بطريرك الاقباط وقومهُ الى حجر الكنيسة فوجدا بعد العناء الشديد انَّ القبط جاروا بالرياء وعـدم الاستقامة لا يطلبون من

رومية سوى المنافع المادية والمساعدات الماليّة ومن ثمّ لا فائدة من تكرار هذا السفر مع كثرة اخطاره . وعلى كلّ حال أعلن الاب باستعداده لاتمام اوامر رؤسائه ان ثبتوا على رأيهم

لم يشأ الاب اليانو ورفقتهُ ان يبقوا دون عمل الى حين سفرهم فخصّوا قسماً من زمنهم في زيارة ادبرة الرهبان فحاول القاصد الرسولي بجهد استطاعته ليُصلح احوالهم وينظّم سلوكهم ويسن لهم القوانين الرهبانيّة الموافقة لدعوتهم وهو يذكر في رسائله ما أنفقهُ على كلّ دير من الحسنات ليسدّ عوز رهبانه والمبالغ التي استدانها لهذه الغاية

وفي تلك الاثناء بذل سعيهُ لدى السيد البطريرك والاساقفة واعيان الطائفة بان يصلحوا تاريخهم السنوي على موجب الحساب الغربي الجديد الذي كان قرّرهُ الحبر الاعظم غريغوريوس الثالث عشر وامر بان يبتدئ الاصلاح في تشرين الاوّل من تلك السنة ١٥٨٢ فيحتسب اليوم الخامس منهُ اليوم الخامس عشر (١

فكان الكردينال كرافا محامي الموارنة كتب في ذلك الى الاب اليانو لكي يُقنع رؤساء الطائفة المارونيّة باتخاذ ذاك الاصلاح كما امر ايضاً الحبر الروماني بان يعلن الرهبان الفرنسيسيّون بذاك الحساب في مصر وفلسطين وانحاء الشام

على انّ الاب اليانو والرهبان الموما اليهم بعد ان فاوضوا مع رؤساء الكنائس تحقّقوا ان ذلك التغيير ينشئ حاضراً عوائق كثيرة وتهييجاً على الكاثوليك من قبل الاتراك والطوائف المنفصلة عن رومية بحجّة كونهم تبعوا الفرنج فتآمروا على الدولة .. ومن ثمّ وجب تأجيل ذلك الاصلاح الذي لم يتم الّا بعد ٢٤ عاماً في السنة ١٦٠٦ على عهد البطريرك يوسف الرزّي فجرى وقتئذٍ في الشام وحلب وبقيّة المدن ما خلا جزيرة قبرس (٢ امّا بقيّة الطوائف الكاثوليكيّة فلم تتبع الحساب الغربيّ الّا في القرن التاسع عشر

وممّا اهتمّ بهِ ايضاً القاصد الرسولي مسألة « الموارنة البيض » التي يعود اليها غير مرّة في كتاباته . ولعلّك تطلب ومن هم الموارنة البيض ؟ دونك ما كتبهُ الاب

---

١) راجع مقالة الاب كرلنجت في اصول الحساب السنوي (في المشرق ٣ [١٩٠٠] : ٢٢٥ — ٢٣٠)

٢) الطب تاريخ الدويهي (ص ١٨٥)

اليانو في الكردينال كراڤا : « انّ عدداً ليس بقليل من موارنة لبنان ممّن يسكنون بجوار المسلمين تظاهروا في انحيازهم خوفاً منهم ومراعاة لهم بالدين الاسلامي وتعمّموا بالعمامة البيضاء فدعوا لذلك بالبيض وهم في الباطن نصارى يعلنون بدينهم كلّما وُجدوا بين اهل ملّتهم فيتقرّبون من الاسرار كالنصارى ولا يجسر ارباب الطائفة ان يخوضوا في ذلك لئلّا يشتهر الامر بين الاتراك فينالهم بسببهم أذًى وهوان . فهؤلاء يمرّون على الجانبين . فبيّن لهم المرسلان اليسوعيان انّ المسيحي لا يجوز له المراء فيجب عليه ان يتحاشى ما يحمل ظنّ الناس به انهُ جحد دينهُ . فكلامهُ هذا اثّر في البعض منهم فقط فاستشار الاب اليانو الشيخ يوسف حبيش في طرابلس وطلب اليه ان يتدارك الامر ويسعى به لدى الامراء بني عسّاف سادته والاتراك اصحابه علّهم يطلقون الحرّية لهؤلاء الموارنة بان يجاهروا بايمانهم علانية دون خوف

وصلت رسائل الاب اليانو الى رومية وفهم الرؤساء انّ بعثتهُ الى الاقباط ضررها اعظم من خيرها فوردهُ جوابهم في ايّار سنة ١٥٨٢ انهُ لا بأس من رجوعهِ مع رفقتهِ الى رومية . وكان موعد اقلاع السفينة من طرابلس في ٧ حزيران فتجهّز للسفر . ثمّ بلغهُ انّ السفينة المذكورة سوف تبحر الى قبرس وانّها ستبقى هناك الى شهر آب . فبقي المرسلون محتارين لا يعلمون اينتظرون مركباً آخر يسافر رأساً الى البندقيّة او يركبون هذه السفينة . فانتهى الخلاف بينهم بان يسافر الاب يوحنّا برونو مع الاخ مريو الى قبرس ويبقى الاب اليانو مع الاخ برتزدينو في سورية الى شهر آب . وهكذا تمّ

وجاء في تاريخ الدويهي (ص ٤٤٤) ما يوهم بسفر الاب برونو في السنة السابقة اي ١٥٨١ قال بعد ذكره انتخاب البطريرك سركيس الوزّي لرئاسة الشعب :

« وحينئذٍ كلّفوا جوان برون ان يذهب من قبلهم الى رومية ليؤدي عن بطريركهم واجب الطاعة ويطلب لهُ درع التثبيت وانفذوا معهُ كتابات الى غريغوريوس الثالث عشر والى وكيل الطائفة الكردينال كارفا . واخذ جوان برون معهُ اربعة اولاد . . . ولمّا انتهى جوان برون الى رومية سلّم رسائل البطريرك الجديد واعيان الطائفة الى قداسة البابا . وفي الخامس من شهر آذار في سنة ١٥٨٣ ارسل البابا للبطريرك سركيس كتابة التثبيت على كرسيّ انطاكية وكتابة أخرى لاسقف طرابلس ليلبسهُ الدرع المقدّس ويقبل منهُ يمين الطاعة »

والصواب ان الاب يوحنّا برونو لم يسافر من سوريّة الّا في ٧ حزيران ١٥٨٢

وكان وصولهُ الى رومية في ايلول . امـاً تثبيت البطريرك سركيس ومنحهُ درع الرئاسة بطلب الاب المذكور ووساطة الكردينال كرافا فحصل في آخر يوم من آذار سنة ١٥٨٣ (لا في ٥ آذار ١٥٨٢) وذلك مشروح في براءة غريغوريوس الثالث عشر التي تاريخها في اليوم المذكور (اطلب مجموع البولّات المارونيّة للقس طوبيّا العنيسي (ص ٨٩—٩١)

سفر الاب اليانو الى حلب

اقبل الصيف واشتدَّ الحرّ على سواحل لبنان فرأى الاب اليانو ان الوقت مناسب لزيارة الموارنة في حلب وللاجتماع فيها مع بطريرك اليعاقبة كما اوصاه بهِ الكردينال سان سفرينو ونوى بهذا السفر ايضاً ان يختفي عن جواسيس الاتراك كما فعل بسفرهِ الى القدس . فارسل الاخ برنردينو الى قنّوبين ليقوم بخدمة البطريرك واماَّ هو فسافر وحدهُ برَّاً الى الشهباء فحطَّ فيها الرحال في ١٥ تمّوز من السنة

كانت حلب في ذاك الوقت من اعظم مدن الشرق واغناها وأَرْوَجها بتجارةً اليها تنتهي كنوز الهند والعجم وما بين النهرين وبها تجتـاز قفول الشام والعرب ومصر والارمن ويتجاوز عدد اهلها الثلثمائة الف وكان النصارى منهم نحو اربعين الفاً بينهم زهاء مائتي عائلة مارونيّة . وقد اخبر الاب اليانو في رسالتهِ الى الكردينال كرافـا والى رئيسهِ العام في تاريخ ١ آب ١٥٨٢ ان موارنة حلب تحفَّوا فيهِ وبالغوا في اكرامهِ وقبلوا بكل خضوع ودعة اوامر مجمع قنّوبين وأَذعنوا لكل التنبيهات التي أُرسلت الى الكنائس في لبنان وانَّهم اتوهُ بكتبهم الدينيّة ليُصلح فيها ما يراهُ منافياً لتعليم الكنيسة . وسُرُّوا ايَّ سرور بما اهداهم لكنيستهم من الحلل الكهنوتيّة . اماَّ سرّ التثبيت فانَّهُ ينتظر مجيء احد اساقفة لبنان ليمنحهُ اصغارهم واردف بقولهِ انَّ الطوائف الشرقيّة كثيراً ما تسهو عن توزيع هذا السرّ . ووجد في حلب اولاداً نجباء اختـار البعض منهم ليرسلهم الى رومية ليترشّحوا فيها للكهنوت . ومماَّ توفّق اليهِ هناك انهُ لقي شمّاساً بارعاً في اللغة السريانيّة فاخبر الكردينال كرافا بانهُ سيصحبهُ معـهُ الى رومية لمراقبة المطبوعات الطقسيّة التي تشرها للموارنة

وانتهز الاب اليانو فرصة سفرهِ الى حلب ليزور من فيها من تجار الفرنج فبذل مجهودهُ في تحريضهم على ممارسة واجبات دينهم ووزع عليهم الاسرار (لهُ بقيّة)